16 الإسلام وعلم النفس: منهج الإسلام إلى تفسير السلوك

محمد محمود عبدالجابر

قسم علم النفس - جامعة الملك سعود

❖ مكتبة الصفحات الذهبية، الرياض، 1988 [416 صفحة من القطع المتوسط ولكن بحروف صغيرة جداً].

❖ لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية

❖ مجال البحث (الكتاب): التأصيل الإسلامي لعلم النفس - الإسلام وعلم النفس.

❑ ❑ ❑

يستهل المؤلف إعتذاره بأنه لم يهدف إلى إجراء مقارنة بين الإسلام وعلم النفس، ولكن ضرورة وموضوعية البحث ألزمتاه بالسير على نحو يبدو وكأنه يفعل ذلك. ويحدد مقاصد أو أهداف كتابه: بأن يعرّف بمنهج الإسلام إلى تفسير السلوك، وتوجيه العناية بعلم النفس من المنظور الإسلامي، ولينبه العاملين في الدراسات الإنسانية إلى إن الإسلام والقرآن الكريم لا يخضعان لخطوات المنهج الديكارتي الفرضي، فهما من الله ولا يخضعان لما هو عند البشر مهما آتاهم الله من علم.

* الكتاب في ستة أبواب: منهج الإسلام إلى تفسير السلوك، الدوافع، الإنفعالات، فعاليات السلوك العقلية، استقرار أساسيات الصحة النفسية، الشخصية في الإسلام.

ومن هذا العرض نجد أن الكتاب يحاول أن يعالج موضوعات أو عناوين فصول رئيسة تجدها في معظم الكتب المنهجية لمداخل علم النفس وإن احتوت تلك المداخل عناوين أخرى مضافة.

* يستفتح المؤلف بابه الأول بعرض عداء علم النفس للدين ونظرة علم النفس الضيقة للإنسان ليقارنه بمنهج الإسلام كنظام شمولي وعملي. ويفصِّل ويدلل في ذلك كثيراً مع تحامل موجه وواضح ضد معطيات علم النفس الحديث.

* ثم يبدأ الباحث بتوجيهات منهج الإسلام إلى تفسير السلوك ليتكلم أولاً

عن الأسس الروحية للسلوك الإنساني، ويذكر منها المؤلف ثلاثة:

- الإقرار الإيماني: الفطرة وميثاق النبيين وشهادة الله عليها.
- الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.
- إتصال الإيمان ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾.

ويعتبر المؤلف هذه الأسس الثلاثة القول الفصل الذي عليه يفسَّر السلوك، سواءً الأفراد أوالجماعات.

* ثم يدخل المؤلف في ضرورة المنهج الإسلامي لأنه الأجدر والأولى في تفسير سلوك الإنسان، كل إنسان، إضافة لتفسير سلوك الأقوام والشعوب والأمم. ويعلّل ذلك بأن الإسلام يبني السلوك وينمّيه ويربيّه ويوجهه ويصلحه ويعالجه، فهو الأحق والأجدى في تفسير ذلك السلوك.

ثم يعطي المؤلف نماذج لمثل هذا الطرح والتفسير: نموذج رسالة الإسلام، نماذج العبادات وعمودها الصلاة، نموذج الحياة الزوجية (كروابط مقدسة وسلام داخلي ومودة ورحمة وإنتشار النوع)، نموذج البناء المتكامل للنفس في تحريم الخمر، نموذج السمات النفسية الإيمانية اللازمة للحياة (الصبر).

* أما منهج الإسلام كضوابط عليا للسلوك السوي فإن المؤلف يشتقها من الآيات الكريمة ذات بادئة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في مجالات: أدب العلاقة مع الله، في بناء العقيدة الإيمانية، في الفرائض والأحكام التعبدية، في المعاملات الاقتصادية والشرعية، في الأخلاق والآداب الإنسانية والاجتماعية، الحلال والحرام، الثواب والعقاب.

* ثم يعرج المؤلف إلى الدوافع كفعاليات للسلوك ليقدمها من وجهتي نظر الإسلام وعلم النفس. ويبدأ بالمنظور النفسي المعاصر ليعطي معنى الدوافع والمبادئ التي تقوم عليها (الطاقة والنشاط، الغرضية، التوازن، الحتمية الديناميكية) ثم التنظيم الهرمي للحاجات (نموذج ماسلو)، ثم أقسام الدوافع: فطرية أولية، مكتسبة ثانوية، لا شعورية (ثم يفيض المؤلف في شرح الدوافع من وجهة نفسية معاصرة).

وبعدها ينتقل المؤلف إلى مفهوم الدوافع الفطرية الأساس في الإسلام ليحددها بـ:

- دوافع حفظ الذات، وهي ذات قيم فطرية: (ستر العورات، مواراة السوءات، إحصان الفرج)
- دوافع حفظ النوع (دوافع التناسل والتكاثر، الوالدية)

* أما الدوافع النفسية والروحية المكتسبة في الإسلام فيأتي المؤلف على دوافع:

التملك، التعاون (التنافس والمسارعة في الخيرات)، المقاتلة (ويقارن المؤلف طويلاً بين مفهومي العدوان في علم النفس والجهاد في الإسلام) حيث يبرر للجهاد من خلال الدفاع عن النفس ومساعدة المستضعفين.

* ومن الدوافع إلى الإنفعالات ولعقد ذات المقارنة التي جاءت على الدوافع، أي طرح المفهوم من خلال وجهتي نظر علم النفس الحديث والإسلام.

فبعد تعريف الإنفعالات كما يراها علم النفس الحديث يدخل في علاقة الدوافع بالإنفعالات ليراها أنها قد تكون كمحركات وبواعث مثيرة للسلوك، أو لضبط السلوك وتعديله، أو تكوين وحدة نفسية واحدة من الإثنين.

ثم يعرج المؤلف إلى وصف الإنفعالات النفسية كما يصفها القرآن الكريم:

- إنفعالات سببية وكفرية (الكِبر، النفاق، الرياء، الكُره، الندم، الخزي، الكفر، كفران النعمة)
- إنفعالات موقفية (ويضرب أمثلة بنماذج أو مواقف آدم وزوجته، نوح، إبراهيم، زكريا، أيوب، داود، سليمان، يونس، يعقوب، يوسف، موسى، إمرأة فرعون، مريم، عليهم وعليهن السلام جميعاً).
- إنفعالات إيمانية إيجابية (الفرح الإيماني، الحمد لله، الحزن والإشفاق على النفس، الحياء، الإشفاق والخوف من الساعة والحساب).

ثم يدخل المؤلف في الإنفعالات النموذجية السائدة من خلال رؤية إسلامية

لها ليحدد أو يخصص من هذه النماذج: حب الدنيا، الخوف، الحزن، الحسد، الغضب.

وبعدها الإنفعالات الراقية في الإسلام:

- جملة انفعالات التعبد (الأوبة، الإنابة، الإخبات).
- حب الله سبحانه وتعالى (الإستدلال بمحبة الله سبحانه، الإستدلال بمحبة رسول الله ﷺ، الأسوة برسول الله ﷺ، المفاضلة بين حب الله وما يحبه وبين حب الدنيا)

* ثم يدخل المؤلف في فعاليات السلوك العقلية ليعود كرة أخرى للتمييز فيها بين المنظورين الإسلامي والنفسي الحديث، مستهلاً تلك العمليات بالإدراك والتفكير والذاكرة والتذكر والغفلة والنسيان ودلالة كل منها (عملية عملية) في علم النفس أولاً والقرآن الكريم ثانياً.

* بعدها يأتي موضوع الصحة النفسية التي يستعرضها المؤلف في بابه الخامس ليحددها في ثلاثة فصول: مفاهيم الصحة النفسية في علم النفس والإسلام، عوامل إضطراب السلوك في علم النفس وعلاجها الإسلامي، آليات الدفاع النفسي وتهذيبها بالإسلام.

حيث يستقرئ المؤلف أساسات الصحة النفسية ويقدم ملاحظات نقدية تحليلية لمفهوم الصحة النفسية في علم النفس ليعرج بعدها إلى مفهوم الصحة النفسية والروحية في الإسلام وأبرز علاماتها المميزة.

بعدها يدخل المؤلف في الأمراض النفسية وعلاجها الإسلامي، ويأخذ المؤلف أربعة أمراض منها كنماذج: القلق، الإحباط، الحرمان، الصراع النفسي.

* بعدها يستعرض المؤلف آليات الدفاع النفسي (الحيل العقلية) وتهذيبها بالإسلام، فيمر على الإسقاط، النكوص، التعويض، التبرير، الكبت (الكظم)، التقمص، الكفْ. ويحاول الباحث أن يعالجها من خلال: جهاد النفس، كف الأذى، قلة الحيلة وضعف الحلول، التفويض بأمر الله، الصدق، الكظم

بالإحسان، الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة، ذكر الله: على التوالي.

* وفي الباب الأخير من الكتاب يختم المؤلف كتابه في موضوع بناء الشخصية في الإسلام، فيستهله بتعريف عام نظريات الشخصية في علم النفس ويفصّلها ويناقشها بنظرة نقدية، ثم يأتي المؤلف إلى البديل الإسلامي لبناء الشخصية فيبدأ أولاً:

- بفطرة الله والخلق والوراثة وخلق الإنسان من عدم، ثم خلقه على أطوار ومراحل، ثم نفخ الروح، وخلق الزوجين، وبداية الخلق في الفطرة البشرية، ثم مراحل النمو الإنساني من بدئه إلى منتهاه.
- مصادر البيئة وتأثيرها في بناء الشخصية ويضع محددات البنية الاجتماعية والإنسانية في: تعاقب الأجيال، التعارف بين الناس، والتقارب بين الناس
- العوامل العامة في البنية الاجتماعية: السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي
- البنية الكونية المادية وتسخير الكون لـ: أداء العبادة، للعلم والتعلم، للبحث عن الرزق والمعايش، للإبتلاء والإختبار، للإنفاق
- البيئة النفسية الأخروية حيث يمر المؤلف على شرط معايشتها أولاً وآثارها في الشخصية ثانياً.
- البنية النفسية الداخلية للشخصية (وحدة النفس ودوافعها وأعمالها وحالاتها) من خلال محاور ثلاثة: المبدأ الخلقي، مبدأ حب البقاء، مبدأ الفرضية. ثم أعمال وحالات النفس (الأمارة، اللوامة، المطمئنة)
- أنماط الشخصية في الإسلام: السوية المؤمنة (من خلال ثلاثة تصنيفات: العقائد، العبادات، الأخلاق)، نمط الشخصية الكافرة، نمط الشخصية المتذبذبة المنافقة.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

الإسلام وعلم النفس، التأصيل الإسلامي لعلم النفس: الدوافع،

الإنفعالات، السلوك العقلي، الصحة النفسية، الشخصية الإنسانية من وجهة نظر إسلامية.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- قد يلاحظ القارئ أن التلخيص والسرد جاء مبتسراً جداً بحيث لم يأت على آراء المؤلف ووجهة نظره ولم يأت على التحليل المضموني كما كان السرد في البحوث أو الكتب الأخرى. ويعود السبب إلى أن الكتاب ضخم وكبير جداً فبالرغم من أنه يضم أكثر من 400 صفحة إلا أنها صفحات بحجم كبير أولاً وبحروف ذات حجم صغير جداً ثانياً. مما يعني أن المؤلف بحدود 800 صفحة في شكل الطباعة العادية.
- ومثل هذا الحجم، ومثل هذا الإستطراد والعرض المفصَّل، في كل جزئية والتدليل القرآني لها، يصبح من العسير أن يضمَّن المَسَرد آراء ووجهات نظر المؤلف، ليصبح السرد أقرب ما يكون إلى عرض العناوين الرئيسة والفرعية والمتشعبة عن الفرعية. لذلك فإن الرجوع إلى متن الكتاب - في هذه الحالة – هو الإجراء الصحيح لكي لا يظلم السارد محتوى الكتاب.
- إلا أن ما يمكن أن نخرج به من هذا الكتاب – في رأيي – هو:

• أن الباحث قصر كل سِفْره الضخم لعقد المقارنات بين علم النفس الحديث من ناحية وآيات القرآن الكريم المتحدثة عن العناوين المطروحة فقط من ناحية ثانية. أي أن المؤلف لم يأت على الأحاديث النبوية (وقد اعتذر المؤلف في تصديره عن هذا ووعد بدراسة لاحقة)، ولم يأت كذلك على التراث الإسلامي في هذه العناوين النفسية الكبيرة مستبعداً إياه بالكامل تقريباً ومقتصراً على القرآن الكريم ومعجمه المفهرس والتفاسير الكبرى حسب.

• ولا ألوم الباحث في اقتصاره على الآيات القرآنية وتفسيرها، لأن

الكتاب كما ذكر ضخم وكبير وكان يمكن أن يكون في عدة أجزاء لو أنه أضاف مدلولات السنة النبوية والتراث النفسي الإسلامي. إلا أن السكوت المطلق عن التراث النفسي الإسلامي وعدم جعله حتى بين المنظور التأريخي لعلم النفس في صفحات الكتاب، ربما يثير بعض التساؤلات حول هذه المنهجية.

❑ ❑ ❑